دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الاستشراق والاستشراق مزدوجا
المصدر:	مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الناشر:	جامعة القاضي عياض - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
المؤلف الرئيسي:	خروبات، محمد
المجلد/العدد:	ع 11
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1993
الشهر:	أبريل
الصفحات:	3 - 15
رقم MD:	517575
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	العلاقات الثقافية، الاستشراق والمتشرقون، الحضارة الإسلامية، الماركسية، سعيد، إدوارد، الثقافة الغربية، ماركس، كارل هانريك
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/517575

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الاستشراق

والاستشراق مزدوجا

محمد خروبات

كلية الآداب والعلوم الانسانية

مراكش

يسود فيه طرح الظاهرة الاستشراقية : من معانيها ومن مواقعها الاستعمارية والثقافية والفكرية... طرح الظاهرة بجلاء ثم العمل على إحكام عنصر التمييز فيها ، وتقسيمها إلى استشراق ليبرالي وآخر اشتراكي... من هنا ممارسة نقد مزدوج على التقسيمين : إنه الاستشراق والاستشراق المزدوج.

1 - هل ماركس مستشرقا ؟

طبع كتاب ادوارد سعيد بانتقادات كانت تحوم حول بنية العمل وحول غاية العمل : مع ربط هذا العمل بخارجه أي بالمفهوم العام للاستشراق، هل تمثله سعيد ، وهل كان وفيا في تعليله وتركيبه للمنظومة المعرفية للاستشراق ... ؟؟ إعتراض يمكن القول أن ماتقوله في هذا العمل ينطبق عليها هي كذلك !

تدور بعض الانتقادات حول عمل سعيد أنه غير مركز في تصويره لتصور الغرب للشرق ... إن عمله فضاء جغرافي متميز ،لا يدور على الشرق بل لينفي وجود الشرق .. إذا كانت هذه هي جوهر فكرة كمال أبي ديب وجلال العظم عن عمل سعيد فإن كمال أبا ديب بدأ من الموقع المتطرف - بحكم معاينة الكتاب بعامل الترجمة - لثلاثة غايات : غايتان جزئيتان وغاية عامة كلية ، غايتان تتمحوران في المعرفة وغاية تتمحور في الايديولوجيا :

- الغاية الاولى ليخلص الاستشراق من الفهم السيئ الذي اصطبغ به في الغرب والشرق.

- الغاية الثانية لينفي مشروعية التهليل الذي قوبل به الكتاب في الاوساط الفكرية والعلمية .. وكأنه لينفي نفي سعيد للشرق ، لان الشرق عند سعيد هو نظام من التمثيلات مؤطر بطقم من التصورات الخيالية تجاه شئ إسمه (الشرق) مبتدع ومختلف ولايوجد الا في عرف المستشرق وانه - علاوة على ذلك - أسلوب من الاساليب التي ينهجها الغرب للسيطرة على كيان أراد استعماره سماه (الشرق)،وهذه الغاية توضح الغاية من عمل ابي ديب في ترجمة استشراق إدوارد سعيد، انه لا يقدمه للمعرفة ولكن يقدمه للمعرفة والنقد معا.

- هذه تقودنا الى الغاية الثالثة في عمل كمال أبي ديب وهو الدفاع عن كارل ماركس الذي حشره سعيد ضمن المؤسسة الاستشراقية يقول :

(وفي هذا السياق يمكن لدراسة إدوارد سعيد لماركس أن تدعي لنفسها تميزا منظوريا، ودلالات لا تمتلكها اي معاينة سابقة لماركس وموقفه مما نسميه الان العالم الثالث ، ذلك أن ادوارد سعيد يرى ماركس إلى درجة مطلقة تقريبا ضحية لطغيان الانشاء الذي يلجم مايفترضه تعاطف ماركس الاساسي مع «البؤساء» ثم يدفعه في مجاري الرؤية الاستشراقية ليصوغه في النهاية خيطا آخر من خيوط الانشاء الاستشراقي) (1).

إن نفي سعيد للشرق (كتصور وكحقيقة) هو نفي لفرضية ماركس عن المجتمعات الشرقية ، ان لفظة (شرق) بحكم تقسيم الاستشراق الى شرق -غرب تجعل لماركس مساهمات فعلية في الشرق . فعلى صعيد التصور كان ماركس يستخدم لفظة (الشرق الجمعي)كوسيلة لتوضيح النظرية ، وهذا أكثر سهولة بالنسبة له لتوضيح الهويات الفردية المتعددة ، وأشارمرة إلى الشرقيين بقوله : (إنهم عاجزون عن تمثيل أنفسهم ينبغي أن يمثلوا)(2) فنفي سعيد لمنظومة الشرق وتدميره للتصور الغربي للشرق هو نفي لتصور ماركس للشرق ، وهذا ماقرىء في الغاية الثالثة ذات النص الصريح لكمال أبي ديب .. وهذا ايضا ما حرك الانتقادات الماركسية العربية بكل فعالية لنقد استشراق سعيد . إنه صراع معرفي وايديولوجي :

- صراع معرفي لانقاذ فرضيات ماركس عن المجتمعات الشرقية ، ثم اضفاء صبغة المشروعية المطلقة على فكرة ماركس .

- صراع ايديولوجي لدحض عمل سعيد وتدميره لانه يصنف في اتجاه الفكر الليبرالي النقيض المباشر للفكر الماركسي ، ولان عمل سعيد يهدف الى تأسيس إستشراق من عمل جديد،وهذا مالا يرض عنه الفكر المضاد .

إن الغاية التي حركت أبا ديب هي نفسها التي حركت جلال العظم في (الاستشراق والاستشراق معكوسا)،وهي نفسها التي حركت مهدي عامل بحدود أخرى وحركت آخرين .

إن (تحامل) سعيد على ماركس يأتي من الصورة الرومانسية التاريخية و الاقتصادية السياسية التي شيدها ماركس عن المجتمعات الشرقية في ظل الاستعمار والهيمنة الغربية . إن فكرة ماركس عن الشرق يسلها سعيد من موقف ماركس من حالة الشعوب المقهورة التي ترزخ تحت نير الاستعمار. وكان موقفه واضحا من إستعمار بريطانيا للهند يقول : (إن على إ نجلترة أن تحقق في الهند رسالة مزدوجة ، الاولى تدميرية والثانية ايحائية تجديدية ، افناء المجتمع الاسيوي وارساء الاسس المادية للمجتمع الغربي في آسيا)(3) .

ان ماركس عند سعيد كان ابعد مايكون من كونه متعاطفا مع بؤس البشر ، وهذا البعد كان يعيه ماركس نفسه يقول : (فلا ينبغي علينا أن ننسى أن هذه المجتمعات القروية الرعوية مع ماقد تبدو عليه من المسالمة والبعد عن الاذى كانت دائما وماتزال الاساس الصلب للطغيان الشرقي ...) (4) .

إن (الشرق) عند ماركس هو اقل أهمية من حيث هو مادة انسانية ،لكنه أكثر اهمية من كونه موضوعا لتطبيق مشروع ماركسي هو (رومانسي) على الرغم من شعوره وإحساسه التعاطفي مع بؤس البشر، والذي مافات أن يسجله هو نفسه.

ان الرومانسية في مشروعه تظهر في كونه كان يعتقد ان تحقيق غايةتدمير الهند واقامة الليبرالية فيها ، يشكل لبنة للتقدم نحو الاشتراكية فالشيوعية ، وهي أشبه ماتكون بالفرضية التي قدمها ماركس عن انجلترا نفسها حيث كان يظن أن الثورة البروليتارية ستنطق من غرب أوربا أي من إنجلترا بلد العمال ، واذا بها تنطلق من شرقه . وفرضيته عن الهند هي فرضية عامة تنطبق على الشرق بأسره بحكم أن الشرق بأسره كان مشروعا للاستعمار الامبريالي وأن قانون الفرضية الماركسية في الانتقال من الليبرالية الى الاشتراكية الى الشيوعية هو قانون يراه ماركس ثابتا .

حين يوضع ماركس في الحالة الاستشراقية أولا ،ثم حين يقوم سعيد بنفي (الشرق) كليا ثانيا فإن هذا يثير الغضب الماركسي من حيث :

-إن الشرق شرق ، وينبغي ا ن يبقى شرقا لان ماركس قاله .

-إن الشرق شرق وينبغي أن يبقى شرقا لأن لماركس فيه مشروعا ماركسيا .

-إن الشرق شرق وينبغي ان يبقى شرقا لان فيه مشروعا ماركسيا ، وبالتالي فإن ماركس ليس مستشرقا .

في نقد جلال العظم لسعيد يثير العظم إستنتاجا يفيد ان الاستشراق من حيث هو مؤسسة ومن حيث هو ميدان من ميادين الدراسة الاكاديمية المنتظمة يشكل ظاهرة ماكان يمكن أن توجد - بالمعنى الدقيق للعبارة - قبل صعود أوربا البورجوازية وتثبيت سلطانها وتوسيع

حدودها .(5)

هذه النقطة التي يثيرها العظم ليست استنتاجا - كما يقول - وانما هي نقطة أثارها إدوارد سعيد في إحدى المواطن من تحليلاته ولم يجعل منها تطابقا بين ظهور الاستشراق مع صعود البورجوازية وانما صعود البورجوازية وظهور النهضة نما وطور ظاهرة الاستشراق التي كانت في صبغتها التقليدية ، ويعتقد العظم أن الملاحظات النقدية التي وجهها لعمل سعيد تساعده على فهم المواقف الهامة التي أدت اليها تحليلات إدوارد سعيد في كتابه ،وعلى فهم بواعثها ، ويقدم جلال العظم مِنْ بَيْنِ أبرز المواقف التي يعينها (القسوة التي تناول بها ادوارد محاولات كارل ماركس النظرية لفهم المجتمعات الاسيوية والشرقية عموما) (6) وحينما يذكرالعظم بعض المواقف إلى جانب هذه إنما ليضفي طابع الاستئناس على نظرية ماركس لتخليصه من ربقة الاستشراق ويجعلك تستشعر الموضوعية الكاملة ؛ بينما فكرته عن ماركس هي غاية النهاية ، إنها تتطابق مع الغاية الثالثة بالنسبة لكمال أبي ديب ، من هنا يشمر عن ساعده ليفند منظومة سعيد تجاه ماركس حيث لايعتبرها أكثر من رسم كاريكاتوري وهي بمثابة رد الاعتبار على اعتبار سعيد لمشروع ماركس بأنه شعور رومانسي ، ويميل العظم الى أطروحة ماركس فيعيدها في نسيج فكري توضيحي مدعم باستشهادات من (رأس المال) و (البيا ن الشيوعي) فيصبح ماركس هو صاحب التجارب الكبيرة والاحكام العامة والتعميمات الشاملة والتجريدات السائدة والصياغات اللغوية المفضلة وأن تفسيره جزء من الصيرورات التاريخية المعقدة ، وأنه ليس العامل في الاستعمار ولا المساهم في الاستشراق ، بل ليس حتى الذي اغتصبت عقله عقائد وفرضيات وتعميمات الاستشراق، فاستبدت به ، ومنعته من رؤية كل حقيقة عن الشرق، وقضت على تعاطفه الانساني الأولي مع المجتمعات المستعمرة .(7) .

وتأتي جِدِّيَةٌ ماركسية جديدة ، هذه الجِدِّيةُ تفعل نفس الفعل وتهدف لنفس الغاية حيث طالعنا حسن حمدان بمقال له صدر ككتاب (هل العقل للغرب والقلب للشرق) (8) ، حسن حمدان الملقب بمهدي عامل الموصوف بنابغة الماركسية في العصر الحديث .

يحصر مهدي عامل مناقشته لكتاب سعيد في أربع صفحات فقط من كتاب الاستشراق، انه لا يبحث في الكتاب كله ولكنه يبحث في أربع صفحات ، وفي الاربع أسطر الاولى من مقاله يبين عن الغاية الثالثة التي حركته لهذا الفعل ، انه (ماركس في " استشراق"إدوارد سعيد) (9) يقول حسن حمدان :

(أبتدي هذه الكلمة بأن أوضح للقارىء غايتها :

في اربع صفحات فقط من كتابه (الاستشراق) الذي لايزال يثير اهتماما بالغا ونقاشا

واسعا في العالم العربي وخارجه يتحدث ادوارد سعيد عن علاقة ماركس بالفكر الاستشراقي وبالشرق الاسيوي . فيقول قولا يستوقف غايتي من هذه الكلمة أن أناقش هذا القول وحده ...). مطلع المقال .

وينطلق مهدي عامل ليناقش هذا القول وحده ، فتراه يتميز في نقاشه عن نقاش أبي ديب وجلال العظم حيث لا يظهر بمظهر تبريري لمنظومة ماركس ، وتخليصه من ربقة المؤسسة وإنما ليفرغ على سعيد قوالب المنهج المادي التاريخي وأسلوب الماركسية اللينينية ،حيث يبدو إدوارد سعيد عنده في تحليل منظومة التصوير الغربي :

1 - أبعد مايكون عن تحكيم عنصر الصراع الطبقي التاريخي في الفهم .

2 - وأنه غير مادي في معالجته لانه لايحكم القضية ونقيضها في الفهم فسقط بذلك في الاحادية .

3 - وانه محتارفي بعض نصوصه في الصفحات الاربعة .

4 - تحليله تحليل شكلي مطبوع بمنطق التماثل (إما وإما) .

5 - وانه انزلق (الى مواقع الفكر البورجوازي المسيطر) (10)

ليس هذا هو بيت القصيد عند مهدي عامل بل بيت القصيد هو محاكمة كلام إدوارد سعيد من وجهة منطقية تدين للماركسية اللينينية . إذا كانت ثمة (شراكة لامتساوية بين الشرق والغرب) فليس معناه أن كل الغرب مستشرقون حتى ولو كان ماركس ... (11)

بيد ان سعيد لم يعمم الفكرة كقانون يجعل حتى رجل الشارع الغربي والنجار الغربي والحداد الغربي في عداد المستشرقين ، بل الشراكة اللامتساوية بين الشرق والغرب إفتعلتها تصورات سائدة في الثقافة الغربية ، وكل من ساهم في التصور فهو في (الاستشراق) .. تلك المساهمات الماركسية من قبل ماركس في المشروع الاستشراقي تقود مهدي عامل ليبررها وليمارس النقد بعد تبريرها ، إنه يذهب إلى أن :

1 - سعيد حكم الاخلاقية في معالجة الاستشراق ، فكانت نظرته إلى ماركس نظرة أخلاقية ، أي قلبية وليست عقلية ، بيد أن نظرة ماركس إلى القضايا وإن كانت تتم بالقلب جزئيا فإنها بالعقل كليا ، إذا كان القلب للشرق والعقل للغرب وماركس حكم العقل فإنه يبدو غربيا وليس مستشرقا .

2 - ماركس عند سعيد هو غير ماركس الذي يعرفه الماركسيون وخاصة مهدي عامل إنه خضع في البداية والنهاية إلى التأويل السعيدي ..وليس التأويل فحسب بل إلغاء نصوص ماركس المستشهد بها في الاستشراق . لماذا ؟ لان فكر ماركس الذي بنى نظرته على السؤال المادي التاريخي استبدل عند سعيد بسؤال أخلاقي ، وهذا تأويل منحرف لمنطق السؤال ! .

3 - سعيد محكوم عليه في مناقشة ماركس بالاخلاقية وهي منطق الفكر الديني المرفوض في مشاريع ماركس النظرية .

ثمة حقيقة نبعث للعيان ، ان مهدي عامل يحاكم صاحب (الاستشراق)بالاخذ بمنطق المقولات الماركسية والمنهج الماركسي و هي أمور لم تكن شرطا ضروريا في عمل إدوارد سعيد، فمثلما لم يكن المعيار الاخلاقي شرطا في معاينة ماركس لقضايا المجتمع الشرقي فإن المعيار الماركسي لم يكن شرطا في معاينة سعيد لقضية الاستشراق لأنه ليس ماركسيا مثلما أن ماركس ليس أخلاقيا * .

ثمة منطق خطير ، ومزلق منهجي واضح في عمل مهدي عامل ، ومهدي عامل من المفكرين القلائل الذين يعتصمون بالمنهج .. هذا المنعطف هو تماديه في مناقشة استشراق سعيد عموما في حين أنه واعدنا في الاطلالة الأولى من مقاله بآلتزامه الصارم بالصفحات الاربعة * من كتاب ادوارد سعيد . كيف تلتئم هذه منهجيا ؟

إن إدوارد سعيد جعل ماركس - حسب مهدي عامل - يقع أسيرا في فخ نظرة الغرب للشرق . ان يوقع ثنائية تسري بين الشرق والغرب وحدهما ، فهناك (القلب) للشرق و (العقل) للغرب ، وليس بينهما أو خارج عنهما نظرة تستنبط من التاريخ الأوجه المعقولة ،و تنظر بها في الشرق والغرب معا ، فليس (القلب للشرق والعقل للغرب) ... أما سعيد فهو بفعله هذا سقط في هذه المنظومة بل كرسها وذلك من مواقع معادية للعقل ، بل بفكر ذاتي قلبي (أخلاقي) بصور بعيدة عن العقل ، تبدو في صورة عقلانية مفرطة أو ما أسماها عامل بـ (العقلانية المسرفة) ..فماركس المنقود عند سعيد ليس متمركزا في أحدهما ولا في كليهما بل من موقع ماركسي نفسه ، اي في حالة خاصة بماركس دون غيره .

أما ثنائية شرق - غرب ، عند سعيد فإنه لم يلغها بفعل مثال عقلانيته بل أكدها ودعمها ، وهذه المرة ليس بفعل (غرب - شرق) التي تعني (الأنا - الآخر) من موقع الغرب ،بل - يرى مهدي عامل - أنه قلب الثنائية من (الأنا والآخر) إلى (الآخر والأنا) حيث صار فيها الشرق هوالذات ،والغرب هو الآخر ، ربما بدا هذا لمهدي عامل من وجهة أن سعيدحكم النظرة القلبية = الأخلاقية في معالجة الاستشراق ، وتحطيم فاعليته التخيلية لاجل تدمير مقولة الشرق ، إنه بفعل عقلانيته الأخلاقية القلبية وقع في نقيض مايعالجه ، أي صار الاستشراق ضربا من الفعل المعكوس وهذا ماعناه العظم بـ (الاستشراق والاستشراق معكوسا) .

ما يرمي اليه سعيد ربما تلك هي غايته،أن يتأسس في الشرق شرقا معكوسا أو يقوم

الشرق ليمثل نفسه ويبين على أنه قادر على تمثيل نفسه ليحطم بذلك الأسطورة المنسوجة عليه من قبل الغرب ،ويقوم علاوة على ذلك بتقديم نظرات نقدية للمؤسسة الغربية وجعلها في نفس الصورة التي نسجتها هي عليه ،ماقاله مهدي عامل ليس بشيء جديد يقرأ في ماخلف السطور ، وانما هي احدى الغايات التي كان صاحب الكتاب يفصح عنها في غير تلك الصفحات الاربعة .

مهدي عامل يقوم بإلغاء المنطق حين يقيم استدلالا منطقيا بنى سعيد عمله عليه :

أ - اذا كان للغرب موقف من الشرق ، وكان الشرق لا يرى في نظرة الغرب إليه وجهه الصحيح ، ومن هنا يرفضه .

ب - واذا كان ماركس غربيا .

ج - فإن فكر ماركس فكر استشراقي لا يمكن للشرق أن يقبله .

حسن حمدان هنا يعتبر هذه العملية الاستدلالية قياسا ، والقياس هو نمط المنطق الشكلي ،من هنا ينبغي رفضه ، وهذا الرفض لامبرر له منطقيا ، فهل يرفض هذا الاستدلال لكونه :

1 - إستدلالا شكليا وقياسا ، ومن هنا فسيكون قد رفض المنطق وهو يعتصم به ، وهذا لا يمكن ، لانه ليس في مواطن الحوار والاستدلال يرفض المنطق ، وفضلا عن هذا ليس المنطق حين يكون رمزا بل المنطق هنا حين يكون دلالة وواقعة .

2 - أم أنه ينبغي أن يرفض لان صاحب (الاستشراق) استعمله .

3 - أم أنه ينبغي أن يرفض لانه يُدينُ مشروع ماركس .

إن مهدي عامل جزء القاعدة المنطقية بما لاينبغي لها وبما لايستقيم مع القدر المشترك من المعرفة ، انه في المقدمة الثانية من القياس الشكلي يحذف شيئا منسوبا لماركس ، وعليه بنى إدوارد سعيد عمله ؛ وما حذفه مهدي عامل كان بالنسبة اليه هو الحافز على وضع الاستدلال بل على وضع المقال برمته . فالقاعدة الثانية ينبغي أن تصبح :

"ب - ولما كان فكر ماركس فكرا غربيا " اذ المحذوف هو " وقال فكرا إستشراقيا" (12)

لانه ليس لمجرد أنه غربي تكلم عنه سعيد وإلا لكان لسعيد ان يذكر حتى رجل الشارع والطباخ والمتوسل الغربي كمستشرقين لمجرد انهم غربيون ... ليس هذا هو القصد .

إذا نحن تجاوزنا تلك الانتقادات وأردنا أن نخرج بخلاصة منها عنهافما هي الخلاصة النهائية التي تسجلها وهل بالفعل ان ماركس كان مستشرقا ؟

انها تنتقد لان ماركس ورد عند سعيد في (الاستشراق) وقد نَاقَشْتَ وَوَضَّحْتَ لِتُفَنِّدَ

وتُبَرِّرَ وتدافع .. هذا مما لاشك فيه، وخرجت بنتيجة هو أن ماركس ليس مستشرقا .

إذا سلمنا بهذه الفكرة وعدنا الى مقال قديم من حيث الزمان وهومقال لانور عبد الملك الذي يتبنى المنهج الماركسي ويعمل به ، صدر في الستينات بالفرنيسة تحت عنوان (Crise de L'Orientalisme)ترجم الى العربية وعليه دراسات (13) وذلك لاهميته الجادة بحكم أنه من أوائل من تكلم فى الاستشراق من جهة ،ومن جهة ثانية عربي (مصري) ،ومن جهة ثالثة من وجهة نظر ماركسية هي منصفة لموضوعنا ومعقولة .

أنور عبد الملك في هذا المقال لايلغي الصراع الحضاري بين الشرق والغرب بل يعتبر أن العصر هوعصر المواجهة الحضارية بين الشرق والغرب على كافة المستويات ، والغرب عند أنور عبد الملك هو بشقيه الليبرالي والاشتراكي الماركسي،فايديولوجيتهما تجاه الشرق واحدة، وهي الهيمنة على كل ماهو غيرهما ،وكان (الشرق) هو (الغير) المقصود .

يميز أنور عبد الملك بين :

أ - استشراق تقليدي نشأت معه المفاهيم الأولى (شرق -غرب) (أنا - آخر)وهو استشراق يقوم على العرقية المحضة ، يقسم بين عقلية آرية وعقلية سامية ،ويعمل بمذهبه الفيلولوجي ، وهذا المنهج هو غير علمي لانه يعزل النصوص عن سياقها التاريخي .

ب - استشراق جديد ، ميز فيه بين استشراق ليبرالي واستشراق إشتراكي الاول سلبي والثاني إيجابي ، وهنا يخلص لديه ماهو سلبي مما هو إيجابي في الاستشراق ...

من هنا ومن أية وجهة يمكن ان ينظر إدوارد سعيد الى استشراقية ماركس أو عدم إستشراقيته ، هل من منظور العظم ومهدي عامل وكمال أبي ديب أم من منظور عبد الملك الذي تكلم عنها وأثبتها خاصة وأن إدوارد سعيد ناقش عمل عبد الملك هذا ،مما يوضح أن اعتبار سعيد لماركس مستشرقا يأتي من جهة التصور الماركسي نفسه ...

إن المجال الفكري لا يجري بين أنور عبد الملك وبين العظم ومهدي عامل وآخرين لأنهم في الحقل ، ولكن السجال كان حادا حينما آنتقل من إطار معرفي في قضية الاستشراق إلى إطار أيديولوجي مذهبي بين تربتين في إطار الاستشراق بين تربة ليبرالية وتربة إشتراكية، وتلك لعمري هي الحافز على مناقشة سعيد لعمل ماركس وغيره ومناقشة الماركسيين لعمل سعيد وغيره .

2 - ورقات عن ماركس والقضية الشرقية

- آستخلاص النزعة الاستشراقية لدى ماركس -

لم يكن ماركس يخفي نزعة العداء للمسألة الشرقية ، لقد أبدى في مقاله عن المسألة التركية - داخل خضم انتقاداته وتحليلاته السياسية السائدة في أوربا الشرقية وأروبا الغربية وأمريكا - استياءا كبيرا لما كتبته جريدة الديلي نيوز الليبرالية التي اعتبرها وجهة نظر مضادة ، فبينما كانت الديلى نيوز لاترى مصلحة في تفريق تركيا مادام المسيحيون يتمتعون بحرية دينية كبيرة وبينما كان المجتمع التركي مجتمعا مفتوحا لمختلف الاقليات فان ماركس اعتبر ماتفعله هذه الجريدة تمجيدا لتركيا وللشعب التركي وفضلا عن ، الديلي نيوز تثير الخوف والنقمة لدى الجمهور الانجليزي (14)

نفس الموقف وقفه ماركس حينما اعطى مثالا بمؤلفات عضو البرلمان السيد داڤيد أورتهارت(15) الذي اعتبره مملوءاً بافكار القرون الوسطى و البطريركية عن وطنه لمجرد ان هذا الرجل تحمس وأبدى اعجابا بالاتراك ، ولعل السر في ذلك أنه امضى ثلاث سنوات في قتال الاتراك ،فأكسبه ذلك تجربة جعلته يتحمس اعجابا ، ولكن ماركس الذي لم تكن له المواقف المباشرة فى كسب السر في مدح الاتراك فانه أورد السبب الذي دفع داڤيد أورتهارت لذلك، فأردف أن يصف هذا الرجل بالريفية الرومانسية وأن يرجع مؤلفاته عن تركيا التي هي مليئة بالاخبار المصطنعة الى المفارقة الآتية :" لو لم يكن السيد أوتهارت مواطنا انجليزيا لتمنى بكل تأكيد أن يكون تركيا ولو انه لم يكن كالڤينيا (Presbyterien)لتمنى أن يكون محمديا " (16).

وانتقل بفعل مداراته في تحليله الهادئ في مناقشة المسألة التركية في مقال نشره في نيويورك تريبون (17) في 18 آب و 2 أيلول من سنة 1853 بعنوان (المسألة التركية في مجلس العموم) اعتبر بان الديانة الاسلامية لا يمكن أن توجد في الحضارة وحتى ما إذا لم تتخلص تركيا بأغلبيتها الأوربية المسيحية من عقيدة الاسلام الذي يسميه ماركس Mohamétanisme فان هذا هو محض العجز في تركيا ، يقول : لقد ترسخ الاعتقاد أكثر فأكثر في مجرى السنوات العشرين الأخيرة بأن الاتراك في أوربا ليسوا في الحقيقة إلا دخلاء وأن وطنهم ليس أوربا بل آسيا ، وأن الديانة الاسلامية لا يمكنها ان توجد في دول متحضرة ، وان ليس علينا أن نحفظ استقلال بلد ليس أهلا لصيانة استقلاله بنفسه ، وأنه يوجد في الواقع في تركيا الاوربية ثلاث مسيحيين مقابل كل تركي واحد " .

(...)

" فالقضية هي التالية : ماذا سيحل بتركيا وبسكانها المسيحيين ؟ فلا يمكن المحافظة على الاسلام Mohamétanisme وسنقدم كثيرا لرؤية بلادنا متورطة في أوربا من اجل

الاسلام"(18) .

هذه إذاً هي الحقيقة الماركسية تجاه المسألة الشرقية ، لقد كانت المقالات السياسية لاتعزل تركيا في خطابها الذي يتناول تحذير أوربا بكاملها وقومياتها المؤهلة للحضارة والتغيير أن تلعب دورا في ايقاف الزحف الاسلامي على المناطق التي عاشت أكثر من أربع قرون تحت السيرة الاسلامية ، وتحذير المناطق التي لم تقع من الوقوع ، وببراعة تامة كانت مقالات ماركس تفرق بين الامبراطورية الاسلامية التي يسميها (القدرة الاسلامية) وبين تركيا وهو حين يتكلم عن المسألة التركية فإن خطابه ليس لتركيا وللتركيين بالذات بل للجمهور الاوربي عامة ، ومن هنا لعب ماركس نفس الادوار أو أكثر التي لعبها كبار المستشرقين العلمانيين والبابويين في محاولة توحيد صفوف أوربا لاجل إيقاف الزحف الاسلامي الذي يتهدد أوربا من الناحية الشرقية والمتمثل في الامبراطورية الاسلامية بزعامة تركيا ، ففي مقال سياسي نشره في لندن بين7 و 22 حُزيران 1853 وعنونه بالضجيج الروسي كان قصده منه أن تلغى كل الخلافات القائمة بين الروس الذين يرغبون في التوسع وجيرانهم الاوربيين وبين الاحزاب الروسية نفسها ليتوجه القصد إلى(المسألة التركية)و(إيقاف القدرة الاسلامية) (وعلى كل حال فإن كل المسألة تنحصر في حدود انتصار موسكو على بطرسبورغ اوبطرسبورغ على موسكو وليست هناك إذا انتصارلاوربا على تركيا)(19) .

- مادامت الحكومة التركية متسامحة ورحيمة وتستطيع مختلف القوميات والديانات والجهات المحلية ان تتعايش في ظلها بسلام ، وما دامت تركيا (جنة بالمقارنة مغ النمسا وروسيا) فإنها تستحق أن تخرق لسبب واحد هو أنها (محمدية) .

- حين شمرت على نفسها النيل من جغرافية تركيا بدأت الاوساط السياسية والمثقفة والعسكرية في أوربا تتغنى بشعار ان الامبراطورية العثمانية الاسلامية في انحطاط ،وهذا الشعار اغنى عن النيل منها بشكل فعلي جعل كارل ماركس يقف موقف البيان من هذا الشعار ،لأن الاحصاءات والفحوص لاتظهر من تركيا إلا تقدما ،وعلى الأقل فما دامت تركيا قائمة فانها متقدمة ، وماركس يستعمل(تركيا) بدل الامبراطورية العثمانية الاسلامية لان لفظ (تركيا) ألين له من لفظ الامبراطورية العثمانية الاسلامية .

- وحين كانت الحركة التجارية التركية تنمو في البحر الاسود فإن مرجع ذلك ليس الى الأتراك بل مرجع ذلك حسب ماركس إلى اليونانيين و الارمن والسلاف وغيرهم،عَلى هذا يَطرَحُ ماركس السؤال الآتي :

من هم هؤلاء التجار في تركيا ؟ ويجيب :

"بالطبع ليسوا الاتراك ، عندما كان هؤلاء يعيشون في حالة البداوة كانت تجارتهم تكمن في نهب القوافل ، وفي الوقت الحاضر حيث أصبحوا متمدنين قليلا أكثر من السابق فإن

تجارتهم تكمن في فرض أكثر الضرائب تعسفا وفداحة ، إن اليونانيين والارمن والسلاف والغربيين الذين يقيمون في المواني البحرية الكبيرة هم الذين يقومون بكل التجارة .. "(20) .

إن تقسيم تركيا عند ماركس يخضع الى مخطط (موضوعي) من الناحية النظرية التي تأخذ بعين الاعتبار الاساس العرقي والجغرافي .إن تركيا أوربية الموقع وانها تعود الى العرق السلاقي الجنوبي ، فاذا كان مجموع سكان تركيا مثلا 12 عشرمليون من السكان فانه ليس لهذا العدد السلاقي الاصل من الخصوم سوى البرابرة الاتراك ، والمقصود بالبرابرة الاتراك الصنف المسلم الذي تَكَشَّفَ منذ زمن بعيد أنه الخصم اللذوذ لكل تقدم ؛إن الاقلية السلاقية الاصل تبقى راضية على تقسيم تركيا وارجاعها الى اصولها مادام سلاقيو تركيا يعانون من استعبادهم من قبل طبقة مسلمة من الملاكين العقاريين العسكريين ،وتمارس هذه الجماعة العسكرية جمع الوظائف العامة من عسكرية ومدنية وقضائية . (21).

يقول ماركس :" هاهو اذن الحل الوحيد ، البسيط والنهائي ، يشير التاريخ وكذلك الاحداث المعاصرة الى انه يجب اقامة دولة مسيحية مستقلة على انقاض الدولة الاسلامية في أوربا (...) وهي ستصبح ملزمة بمشاركة اعداء القيصر مصالحهم ، وبتشجيع إقامة امبراطورية سلاقية مستقلة مكان الباب العالي المهترى والعفن " . (22)

ولا يفوت في النهاية ان انبه أن هناك حقيقة مسجلة في التاريخ للسيرة الذاتية والعلمية لماركس وانجلز ان ماركس نشر اغلب ماكتبه عبارة عن مقالات في اشهر الجرائد والمجلات العالمية المهتمة بشؤون السياسات العالمية ، وكان يساعده على هذا الهم رفيقه فريدريك إنجلز.

وتقول المصادر والدراسات المحققة أن ماركس وانجلز كانا متعاونين على انجاز تلك المقالات و على نشرها ، وتقول بعض المصادر أن ماركس كان يكتب المقالات ويرسلها الى إنجلز ليتولى نشرها بعد أن يترجمها من لغتها الاصلية الالمانية الى اللغة الاكثر تداولا وهي الانجليزية (23) .

المراجـع

1- مقدمة المترجم لكتاب (الاستشراق : المعرفة -السلطة -الانشاء) ص:2 مؤسسة الابحاث العربية . الطبعة العربية الاولى 1981 .

2 - نفسه ص :35 .

3 - نفسه ص :171 .

4 - نفسه ص :170 .

5 - الاستشراق والاستشراق معكوسا ص :7 دار الحداثة - الطبعة الاولى : 1981 .

6 - نفسه ص : 16 .

7 - نفسه ص : 22-32 .

8 - المقال منشور بمجلة (الطريق) العدد 3- السنة 1986 .

9 - هذه العبارة وضعها الكاتب في عنوان المقال .

10- ص :108 من المقال .

11 - عبارة لمهدي عامل مصاغة من عندنا .

* - (الاخلاق) هنا بالمعنى الذي أراده مهدي عامل للكلمة .

* - الصفحات الاربع المقصودة في الكلام هي صفحة:171-172-173-174 على الاقل في النسخة المترجمة المعتمدة ، ولعل الناقد اطلع على النسخة الانجليزية الاصلية ، فهناك تفاوت في تعديدها .

12 - ص 11 من المقال .

13 - نشرت مجلة (الفكر العربي) في عددها المخصص للاستشراق :(التاريخ -الصورة - المنهج) المقال مترجما الى العربية تحت عنوان (الاستشراق في أزمة) من قبل الدكتور حسن قبيسي ضمن المجلد الاول - العدد 31 - مارس 1983 - السنة الخامسة .

14 - المسألة الشرقية ص :78 .

15 - دانيد أتهارت ، دبلوماسي ومثقف انجليزي كبير ، نالت كتاباته السياسية عن بلاده اعجاب المثقفين المحلين والمحللين العالميين :" لقد حاول طيلة خمسين سنة بجهود لاتمل ان ينشر في اوساط مواطينة معرفة بأهداف وطرق وأساليب الدبلوماسية الروسية (...) وكان يعلن نظريات باطنية بلغة تكتنفها الالغاز فوق - دبلوماسية ومليئة بالتلميحات (...) ولقد كان أرتهارت رجلا يستحق التقدير ، وكان فوقا عن ذلك نموذجا للانجليزي من المدرسة القديمة،الا ان الدبلوماسيين الروس كانوا على صواب كبير في القول " لو أن السيد أتهارت

لم يكن موجودا لتوجب علينا اختراعه" لقطات من المسألة الشرقية ص 166 - 167 ، راجع الملاحظات في آخر الكتاب .

16- نفس المصدر ص :78 -79 .

17 - Tribune من اشهر الجرائد التي كتب فيها كل من ماركس وانجلز ،والسبب في ذلك هو كالآتي : كتب ماركس إلى انجلز في 8 آب 1851 م :" لقد دعتنا نيويورك تريبون فيليغر Freilignth أنت وأنا الى المشاركة في التحرير لقاء أجر ، إنها الجريدة الاوسع انتشارا في أمريكا الشمالية فاذا استطعت ان ترسل لي صباح الجمعة في 15 آب مقالا بالانجليزية حول الوضع في ألمانيا فإن ذلك سيكون بداية عظيمة"المسألة الشرقية ص 18 . وهذه الجريدة تأسست في نيسان 1841م على يد أوراس غريلي Greely Horace وهو عالم طباعة . اكسب من خلال عمله شهرة كبيرة ورجل سياسي في أمريكا الشمالية . نفس المصدرص :18-19 اما عن موقفه من نظيرتها نيويورك تايمز فلقد قال فيها عبارته المشهورة: (انه لمن الواجب الاعتراف بفضل هذه الجريدة لأنها فعلت ما في وسعها من اجل حمل الناس على الامور بشكل عجيب .) أي أنها كانت تمو على الرأي العام العالمي وكانت أخبارها عن القضايا العالمية غير صحيحة ومضحكة ويتسم أسلوبها بالتمايز الجبان والماكر والخلط غير المعقول من جميع التناقضات والأعذار والحجج الكاذبة ، نفس المصدر ص : 98 -99 .

18 - نفس المصدر ص : 147-148 .

19- المسألة الشرقية ص :93 .

20 - نفس المصدر ص 79 .

21- نفس المصدر ص 84-85 .

22 - نفس المصدر ص 86 .

23- نفس المصدر ص 33 .